

القسم الثاني

في نوادر بني عذرة

جميل بن معمر العذري وحبيبته بثينة

خرجت بثينة يوماً وكانت النساء إذ ذاك يتزينن ويجمعن ويدنو بعضهن لبعض ويبدون للرجال في كل عيد فجاء جميل فوقف على بثينة وأختها أم الحسين في نساء من بني الأحب فرأى منهن منظراً لطيفاً فقعد معهن ثم انصرف وكان معه فتیان من بني الأحب فعلم أن القوم قد عرفوا في نظره حب بثينة ووجدوا عليه فراح وهو يقول:

عجل الفراق وليته لم يعجل
طرباً وشاقك ما لقيت ولم تخف
وعرفت أنك حين رحت ولم يكن
لن تستطيع إلى بثينة رجعةً
ثم قال فيها بيتين من قصيدة يصفها بها:

وجرت بوادر دمك المتهلل
بين الحبيب غداة بركة محول
بعد اليقين وليس ذلك بمشكل
بعد التفرق دون عام مقبل
هي البدر حسناً والنساء كواكب
لقد فضلت بشن على الناس مثل ما

فلما سمعت بثينة بهذه الأبيات حلفت بالله أن لا يأتيها على خلوة إلا خرجت إليه وأنها لن تتواري منه، فكان يأتيها عند غفلات الرجال فيتحدث معها ومع أخوتها فتمى إلى رجالها ذلك وكانوا قوماً غياري فرصدوه وعزموا على قتله فجاء على ناقته الصهباء إلى بثينة وأم الحسين فأخذا يحدثانه فنظر إليهما وأنشد:

لقد ظن هذا القلب أن ليس لاقياً
فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي
سليمي ولا أم الحنين لحين
وهموا بقتلي يا بشين لقوني

فبينما هو على تلك الحال إذ وثب عليه القوم فأطلق عنان الناقة فخرجت من بينهم كالسهم ولجى من ظبا سيرفهم.

وعد بثينة لجميل

وعدت بثينة جميلاً يوماً أن يلتقيا في بعض المواقع، فعلم بذلك قومها
فحرسوها ومنعوها من الخروج خارجاً فأتى جميل لوعدها وقعد ينتظر فلم ير لها
وجهاً فجعل نساء الحى يقرعنه بذلك ويقلن له إنما حصلت منها على الباطل
والكذب والغدر وغيرها أولى بك كما أن غيرك قد صار أولى بها فأنشد:

فلرب عارضة علينا بوصلها	بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها في القول بعد تستر	حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في صدري بقدر قلامه	فضلاً وصلتك أو أتتك رسائلي
ويقلن إنك قد رضيت بباطل	منها فهل لك في اجتناب الباطل
ولباطل ممن أحب حديثه	أشهى إلي من البغيض الباذل
ليزلن عنك هواي ثم يصلنني	وإذا هويت فما هواي بزائل
أبين إنك قد ملكت فاسمحي	وخذي بحظك من كريم واصل

تأخير بثينة عن وعدها لجميل

وعدت بثينة جميلاً بخلووة يجتمعان بها وتأخرت عن إيفاء الوعد فحزن جميل
وأنشد يقول:

يا صاح عن بعض الملامة أقصر	إن المنى للقاء أم المسور
وكان طارقها على علل الكرى	والنجم وهناً قد دنى لتهور
يستاف ريح مدامة معجونة	بذكي مسك أو مسحوق العنبر
إنى لأحظ غيبكم ويسرنني	إذ تذكرين بصالح أن تذكرني
ويكون يوم لا أرى لك مرسلأ	أو نلتقى فيه على كاشهر
يا ليتنى ألقى المنية بغتة	إن كان يوم لقائكم لم يقدر
أو أستطيع تجلداً عن ذكركم	فيفيق بعض صبابتي وتفكرني

١٠ قد تجنّى كما أجنّ من الهوى
 والله ما للقلب من علم بها
 لا تحسبى أنى هجرتك طائعا
 فلتبكينى الباقيات وإن أبح
 يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت
 إنى إليك بما وعدت لناظر
 يعد الديون وليس ينجز موعدا
 ما أنت والوعد الذى تعدينى
 قلبى نصحت له فرد نصيحتى

* * *

لقاء جميل وبثينة

قال جميل يوماً لأحد أترابه: هل لك فى مساعدتى على لقاء بثينة؟ فمضى معه
 حتى كمن له فى الوادى وأرسل معه خاتمه إلى راعى بثينة ودفعه إليه، فمضى به
 إليها ثم عاد بموعد منها إليه، فلما جن الليل جاءته فتحدثا طويلاً حتى أصبحا، ثم
 ودعها وركب ناقته وهى باكية، فقالت بثينة ادن منى يا جميل فدنا منها وقال:

إن المنازل هيجت أطرابى
 فترى تلوح بذى اللجين كأنها
 لما وقفت بها القلوص تبادرت
 وذكرت عصراً يا بثينة شاقنى
 واستعجمت آياتها بجوابى
 أنضاء رسم أو سطور كتاب
 منى الدموع لفرقة الأحباب
 وذكرت أيامى وشرخ شبابى

* * *

جميل وبثينة وكثير عزة

قال كثير: لقينى جميل مرة فقال لى: من أين أقبلت، قلت: من عند أبى
 لحبيبة أعنى بثينة، فقال: وإلى أين تمضى، قلت: إلى الحبيبة، أعنى عزة، فقال:

لا بد أن ترجع عودك على بدئك فتستجد لي موعداً من بثينة، فقلت: عهدى بها الساعة وأنا أستحيى أن أعود، فقال: لا بد من ذلك، فقلت: فمتى عهدك بها؟ قال: في أول العيد، وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الردم فخرجت ومعها جارياً لها تغسل ثيابها فلما أبصرتني أنكرتني وضربت يديها في الماء فالتحفت به تسترأ، وعرفتني الجارية فأخبرتها فتركت الثوب في الماء وتحدثنا حتى غابت الشمس وسألتها الموعد، فقالت: أهلى سائرون وما وجدت أحداً غيرك يا كثير حتى أرسله إليها، فقال له كثير: فهل لك في أن آتى الحى فأنزع بأبيات من الشعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها، قال: ذلك الصواب، فأرسله إليها، فذهب وقال: انتظرني حتى أعود، ثم سار حتى أناخ بهم، فقال له أبوها: ما رذك يا كثير، قال: ثلاثة أبيات عرضت لي فأحببت أن أعرضها عليك، قال: هاتها، قال كثير فأنشده وبثينة تسمع من وراء الخدر:

فقلت لها يا عز أرسل صاحبي إليك رسولاً والموكل مرسلُ
بأن تجعلني بيني وبينك موعداً وأن تأمريني بالذى فيه أفعل
وآخر عهدى منك يوم لقيتني بأسفل وادى الردم والثوب يغسل

فصرت بثينة صدرها وقالت: احسأ احسأ، فقال أبوها: ميهم يا بثينة، قالت: مثله يأتينا إذا نام الناس من وراء هذه الرابية، ثم التفتت إلى الجارية وقالت: ابغى من الدومات حطباً واذبحي لكثير شاة وسويها له، فقال كثير: أنا أعجل من ذلك وخرج وراح إلى جميل فأخبره، فقال له جميل: الموعد الدومات بعد أن تنام الناس، وكانت بثينة قد قالت لاختها أم الحسين وليلى ونجيا بنات خالتها أني قد رأيت في نحو نشيد كثير أن جميلاً معه، وكانت قد آنتت إليهنَّ واطمئنت بهن وكاشفتهن بأسرارها فخرجن معها، وكان جميل وكثير خرجا حتى أتيا الدومات، وجاءت بثينة ومن معها فما برحوا حتى برق الصبح، فكان كثير يقول: ما رأيت عمري مجلساً قط أحسن من ذلك المجلس ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر ولم أدر أيهما كان أفهم.

ندراهل بثينة دم جميل

لما ندر اهل بثينة دم جميل وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميل، فكان
يصعد بالليل كتيب الرمل ويتنسم الريح من نحو حى بثينة ويقول:
أيا ريح الشمال أما ترينى أهيم وإننى بادي النحول
هبي لى نسمة من ريح بثن ومنى بالهبوب إلى جميل
وقولى يا بثينة حسب نفسى قليك أو أقل من القليل
فإذا ظهر الصبح انصرف، فكانت بثينة تقول لجوارٍ من الحى عندها ويحكن أنى
لأسمع أنين جميل من بعض الغيران، فيقلن لها: اتقى الله فهذا شىء يخيله لك
الشیطان لا حقيقة له.

* * *

لقاء جميل وكثير عزة

اجتمع كثير بجميل يوماً فقال له: يا جميل أرى بثينة لم تسمع قولك:
يقيك جميل كل سوء أما له لديك حديث أو إليك رسول
وقد قلت فى حى لكم وصبايتى محاسن شعر ذكرهن يطول
فإن لم يكن قولى رضاك فعلمى هبوب الصبا يا بثن كيف أقول
فما غاب عن عيني خيالك لحظة ولا زال عنها والخيال يزول
فقال جميل: أترى عزة يا كثير لم تسمع بقولك:
يقول العدا يا عز قد حال دونكم شجاع على ظهر الطريق مصمم
فقلت لها والله لو كان دونكم جهنم ما راعت فؤادى جهنم
وكيف يروع القلب يا عز رائع ووجهك فى الظلماء للسفر معلم
وما ظلمتك النفس يا عز فى الهوى فلا تنقمى حبي فما فيه منقم
فبكيا ليلتهما إلى أن بزغ الصباح ثم انصرفا.

* * *

احتجاب بثينة عن جميل

خرج جميل لزيارة بثينة ذات يوم فنزل قريباً من الماء يترصد أمةً لبثينة أو راعية بتخذها واسطة لتبليغ رسالته وإذا بأمة معها قرينة واردة على الغدير لتملأها، وكانت عارفة به، ولما تبينها وتبينته سلمت عليه وجلست معه وجعل يحدثها ويسألها عن أخبار بثينة ويخبرها بما يعانیه من ألم الفراق ويحملها رسائله إلى بثينة، ثم أعطاها خاتمه وسألها أن تدفعه لها وأخذ عليها موعداً ترجع له فيه ومكث ينتظر رجوعها، فذهبت الجارية إلى أهلها وقد أبطأت عليهم، فلقيها أبو بثينة وزوجها وأخوها فسألوها عما أبطأ بها، فالتوت عليهم ولم تخبرهم بشيء عما حصل لها مع جميل وتعللت عليهم، فضربوها ضرباً مبرحاً ومن ألم الضرب أعلمتهم حالها مع جميل ودفعت إليهم خاتمه، وصدف أنه مر بها في تلك الحالة اثنان من بني عذرة فسمعا القصة جميعاً وعرفا الموضع الذي فيه جميل، فأجبا أن يدرآ عنه هذا الخطر فقالا للقوم إنكم إن لقيتم جميلاً وليست بثينة معه ثم قتلتموه لزمكم في ذلك كل مكروه، وكان أهل بثينة أعز بنى عذرة، فدعوا الأمة وأعطوها الخاتم وأمرها أن توصله إلى بثينة وحذروها من أن تخبرها بأنهم علموا القصة ففعلت ولم تعلم بثينة بما جرى، ومضى الفتيان فأندرا جميلاً وقالوا: تقيم عندنا في بيوتنا حتى يهدأ الطلب ثم نبعث إليها فتزورك وتقضى من لقاتها وطراً وتنصرف أماناً سليماً، فقال: أما الآن فابعثا إليها من ينذرها، فأتياه براعية لهما وقالوا له: قل حاجتك؟ فقال: ادخلي وقولي لها إنى أردت اقتناص ظبي فحذره منى جماعة اعتوروه من القناص ففانتى الليلة، فمضت فأعلمتها ما قال لها، فعرفت قصته وبحثت عنها ففهمتها تماماً فلم تخرج لزيارته تلك الليلة ورصدوها فلم تبرح من مكانها، ومضوا يقتفون أثره فوجدوا ناقته فعرفوا أنه قد فاتها، أما جميل فإنه راد شوقاً وحزناً وفاضت عبراته فأنشد:

سواها وحب القلب بثنة لا يجدى
جزعت لنأى الدار منها وللبعد
صدر المطايا وهى موقرة تخدى

أبى القلب إلا حب بثنة لم يرد
إذا ما دنت ردت اشتياً وإن نأت
سلى الركب هل عجننا لمغناك مرة

وهل فاضت العين الشروق بمائها
 وإنى لاستجرى لك الطير جاهداً
 وإنى لاستبكي إذا الركب غردوا
 فهل تجزيني أم عمرو بودها
 وكل محب لم يزل فوق جهده
 ولما ضاقت بأهل بثينة الخليل
 اتتمنوا عليها عجزاً منه يثقون
 بها يقال لها أم منظور،
 فجاءها جميل وقال لها، أرى
 بثينة، فقالت: لا والله لا أفعل
 وقد اتتمنوني عليها فقال أما
 والله لأضرنك، فقالت: المضرة
 والله فى أن أريكها، فخرج
 من عندها وهو يقول:

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت
 ولا استلابتها خرساً حباؤها
 فما كان إلا القليل حتى انتهى
 إليهم هذان البيتان فتعلقوا
 بأمر منظور، فحلفت لهم
 بكل يمين، فلم يقبلوا منها
 وعاقبوها على ذلك.



زيارة جميل بثينة متكرراً

جاء جميل إلى بثينة ليلة وقد تزيى بزى راعٍ لبعض الحى فوجد عندها ضيوفاً،
 فانتبذ ناحية وجلس فيها، فسألته من أنت؟ فقال: مسكين، فعشت ضيفانها وعشته
 وحده ثم جلست هى وجارية لها تجاه النار تصطليان واضطجع القوم متحين،
 فقال جميل:

هل البائس المحزون دان فمصطل
 من النار أو معطى لحاقاً فلابس
 فقالت لجارتها: صوت جميل والله اذهبي فانظري، فذهبت ثم رجعت وقالت:
 هو والله جميل فشهقت شهقة سمعها القوم، فأقبلوا يجرون، وقالوا: ما لك؟
 فطرحت برداً لها فى النار عمداً وقالت: احترق بردى، فرجع القوم وأرسلت
 جارتها إلى جميل فجاءتها به، فأبفته عندها ثلاثة أيام ثم ودعها وخرج.



وشاية الخادم بجميل وبثينة

رصد جميل بثينة في نجع لبني عذرة حتى إذا صادف منها فرصة وهي مارة مع أترابها في ليلة ظلماء ذات رعود وأمطار فحذفها بحصاة فأصابته بعض أترابها، ففزعت وقالت: والله ما حذفني في مثل هذا الوقت إلا الجن، فقالت لها بثينة وقد فطنت: انصرفي إلى منزلك، حتى تذهب إلى النوم، فانصرفت وبقي مع بثينة أم الحسين وأم منظور، فقامت إلى جميل فأخذته إلى الخباء معها وتحدثنا طويلاً وما زال على ذى الحال إلى أن أسفر الصباح، فجاء غلام روجها بصبح من اللبن بعث بها إليها روجها، فلما رآها مع جميل منفردة مضى لوجهه حتى يخبر سيده، فرأته ليلي والصبح في يده وكانت قد عرفت خبر بثينة وجميل فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله وبعثت بجاريتها لها وقالت: حذرى بثينة وجميلاً، فجاءت الجارية فنبهتهما، فلما تبينت بثينة الصبح قد أضاء والناس متكرين ارتاعت وقالت: يا جميل نفسك نفسك فقد جاءنى غلام روجى بصبوحى من اللبن فرأنا سوية، فقال لها وهو غير مكترث: علام الخوف؟ وأنشد:

لعمرك ما خوفتنى من مخافة بثين ولا حذرتنى موضع الحذر
فأقسم لا يلقى لى اليوم غرة وفى الكف منى صارم قاطع ذكر
فأقسمت عليه أن يلقى نفسه تحت النضد وقالت: إنما أسألك ذلك خوفاً على
نفسى من الفضيحة لا خوفاً عليك، ففعل ما أمرته به وأتت بأم الحسين إلى
جانبها، ثم ذهبت خادمة ليلي فأخبرتها الخبر فتركت العبد يمضى إلى سيده،
فمضى والصبح معه وقال رأيت جميلاً مع بثينة فى خباء واحد، فمضى إلى
أخيها وأبيها وأخبره الخبر وأخذهما وأتى بهما إلى خباء بثينة، فلما دخلوا إلى
الخباء لم يجدوا مع بثينة إلا أم الحسين فخجل روجها وسب عبده، فقالت ليلي
لأخيها وأبيها. قبحكما الله أفى كل يوم تفضحان فتاتكما وتسمعان ما يقال فيها،
أما جميل فإنه أقام عند بثينة حتى جن الليل ثم ودعها وانصرف، وخافت بثينة مما
جرى فتحامت منه مدة، فزادت به لواعج الهوى وأنشد يقول:

لها فى سواد القلب بالحب منعة هى الموت أو كادت على الموت تشرف

وم ذكرتك النفس يا بثن مرة
والا اعترتني زفرة واستكانة
وما استطرفت نفسي حديثاً لخلّة
ولست بناس أهلها حين أقبلوا
وقالوا جميل بات في الحى عندها
من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وجاد لها مستعجل الدمع يذرف
أسر به إلا حديثك أطرف
وجالوا علينا بالسيوف وطوفوا
وقد جردوا أسيافهم ثم وقفوا



هرب جميل عن أهله

ولما اشتهر جميل بحب بثينة اعترضه عبيد الله بن قطنة أحد بنى الأحب وهو من أهلها الأقربين فهجاه، فأجابه جميل وتطاولا، فكف عنه ابن قطنة، ثم اعترضه عمير بن رحل من بنى الأحب، فقاومه أيضاً مثل الأول، فشكا أمره إلى عامر بن ربيعي الحاكم على بنى عذرة وقال: يهجوننا ويغشى بيوتنا ويشبب بنسائنا، فأباحهم دمه وطلب فهرب، ولما علمت بثينة أن جميلاً هجا أهلها غضبت كثيراً وأبدت له كدرها فأنشد جميل يقول:

وما صائب من نائل قذفت به
يا وشك قتلاً منك يوم رميتني
تفرق أهلان بشين فمنهم
يدٌ وعمراً العقديتين وثيقُ
نوافذ لم تظهر لهن خروقُ
فريق أقاموا واستمر فريقُ

وبعد ذلك بمدة تصالحا وأخذ منها موعد اللقاء، فعلم به قومها وقد شاهدوه عندها فتوعدوه وكرهوا قتله خوفاً من أن ينشب بينهم وبين قومه حرب بدمه، وكان أقوامه أشد بأساً من قوم بثينة فأعادوا شكواه إلى السلطان، فطلبه طلباً شديداً، فهرب إلى اليمن وبقي فيها مدة، فتذكر يوماً حبيته بثينة فأنشد يقول:

الم خيال من بثينة طارق
كأن فتيت المسك خالط نشرها
تقوم إذا قامت به عن فراشها
على النأي مشتاق إلى شائق
تقلُّ به أردافها والمراقق
ويندو به من حصنها من بعانق

ولم يزل في اليمن إلى أن عزل ذلك الوالى وانتقل أهل شبه إلى ناحية الشام فرجع إليهم فشكا أكابر الحى إلى أبيه وكان ذا مال وفضل وقدر في أهله فناشدوه

الله وسألوه كف ابنه عن فتاتهم وعن تشبيه بها وما يفضحهم به بين الناس، فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع ثم انصرفوا، فدعا به وقال له: يا بنى حتى متى أنت راتع في ظلالك إلا تأنف من أن تتعلق في ذات بعل يخلو بها زوجها وأنت عنها بمعزل تغرك بأقوالها وخداعها وتريك الصفاء والمودة وهي مضمرة لبعلها ما تضره الحرة لمن ملكها، فيكون قولها لك تعليلاً وغروراً فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على جرى عاداتها. إن هذا لذل وخيم، ولا أعرف أخيب سهماً ولا أضيع عمراً منك، فانشدك الله إلا كففت وتاملت في أمرك، فإنك تعلم أن ما قلته حق ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به من قدر له وفي النساء عوض، فقال له جميل: الرأى ما رأيت والقول كما قلت ولكن هل رأيت قبلى أحداً قدر أن يدفع هواه عن قلبه أو ملك أن يسلى نفسه أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها عن عيني لفعلت، ولا سبيل إلى ذلك وإنما هو بلاءٌ بليت به لحين قد أتيج لى، ولكن أنا أمتنع من طروق هذا الحى والإلام به ولو مت كمدك، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه، وقام وهو يبكى فبكى أبوه ومن حضر جزعاً لما راوا منه من حب بثينة، ثم أنشد:

ألا من لقلب لا يمل فيذهل
سلا كل ذى ود علمت مكانه
فما هكذا أحببت من كان قبلها
فيا قلب دع ذكرى بثينة إنها
وقد آياست من نيلها وتجهمت
وإلا فسلهما نائلاً قبل بينها
وكيف ترجى وصلها بعد بعدها
وإن التى أحببت قد حيل دونها
ففى اليأس ما يسلى وفى الناس خلة
بدا كلف منى بها فتأملت
هيبنى بريئاً نلتته بظلامنة

أفق فالتعزى عن بثينة أجمل
وأنت بها حتى الممات موكل
ولا مكنا فيما مضى كنت تفعل
وإن كنت تهواها ترضن وتبخل
ولليأس إن لم يقدر النيل أمثل
وأبخل بها مسئولة حين تسأل
وقد جدَّ حبل الوصل ممن تؤمل
فكن حارماً والحارم المتحول
وفى الأرض عمن لا يواتيك معزل
وما لا يرى من غائب الوجد أفضل
عفاها لكم أو مذنباً يتنصل

وداع جميل لبثينة قبل سفره

لما ضاقت بجميل الحيل وأراد الخروج إلى الشام هجم ليلاً على بثينة وقد وجد غفلة في الحى، فقالت له: أهلكتنى والله وأهلكت نفسك ويحك أما تخاف؟! فقال لها: هذا وجهى إلى الشام وإنما جئتكم مودعاً، فحادثها طويلاً ثم ودعها، وقال: يا بثينة ما أرانا نلتقى بعد هذا، وبكى بكاءً طويلاً وبكت ثم قال وهو يبكى:

ألا لا أبالى جفوة الناس إن بدا لنا منك رأى يا بثين جميل
وإنى وتكرارى الزيارة نحوكم بثين بذى هجر بثين يطول
وإن صباباتى بكم لكثيرة بثين ونسيانكم لقليل

وخرج إلى الشام وطال غيابه فيها، ثم قدم من الشام وبلغ بثينة خبره فراسلته مع بعض نساء الحى تشكو شوقها إليه ووجدها به وطلبها للحيلة فى لقائه ووعده لموضع يلتقيان فيه، فسار إليها وحدثها وبث إليها أسواقه وأخبرها خبره بعدها، وقد كان أهلها رصدوها فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما، فوثب جميل وانتصل سيفه وشده عليهما، فاتقياه بالهرب، وناشدته بثينة الله أن ينصرف وقالت له: إن أقمت فضحتنى ولعل الحى أن يلحقوا بك، فأبى وقال: أنا مقيم وامضى أنت وليصنعوا بى ما أحبوا، فلم تزل تنشده حتى انصرف وقد هجرته وانقطع التلاقى بينهما، فلقى ابن عمه روقاً ومسعدة فشكا إليهما ما به وأنشد:

رورا بثينة فالحيب مزورٌ إن الزيارة للمحب يسيرٌ
إن الترحل أن تلبس أمرنا وأعانقنا قدرٌ أحم بكورٌ
إنى عشية رحمت وهى حزينة تشكو إلى صباية لصبورٌ
وتقول بت عندى فديتك ليلة أشكو إليك فإن ذاك يسيرٌ
غراءً مبسام كأن حديثها درٌ تمدر نظمه المنشورٌ
لا حسنهما حسنٌ ولا كدلالها دلٌ ولا كوقارها توقيرٌ
إن اللسان بذكرها لموكلٌ والقلب صادٍ والخواطر صورٌ

ولئن جزيت الود منى مثلهُ إني بذلك يا بشين جديرُ
فقال له روق: إنك لعاجزٌ ضعيفٌ في استكانتك لهذه المرأة وذلك الاستبداد بها
ومع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها، وإنك منها بين فجور أرفعك عنهُ
وذل لا أحبهُ لك وكمد يؤدبك إلى التلف ومخاطرة بنفسك لقومها، إن تعذرت
لهم بعد إعذارهم إليك وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجرعت مرارة
الحزم وصبرت نفسك عليها طائعة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت. فبكى جميل
وقال: يا أخى لو ملكت اختياري لكان ما قلت صواباً ولكنى لا أملك لى اختياراً
وما أنا إلا أسير لا يملك لنفسه نفعاً، وقد جتتك لأمر أسالك أن لا تكدر ما رجوته
عندك فيه بلوم وأن تحمل على نفسك فى مساعدتى، قال فإن كنت لا بد مهلكاً
نفسك فاعمل على ريارتها ليلاً فإنها تخرج مع بنات عم لها إلى ملعبٍ لهنَّ فأجىء
معك حيثئذ سرّاً، ولى أخ من رهط بثينة من بنى الأحب تأوى عنده نهاراً فأسأله
مساعدتك على هذا فتقيم عنده نهاراً وتجتمع معها ليلاً إلى أن تقضى أريك فشكره
ومضى روق إلى الرجل الذى من رهط بثينة فأخبره الخبر واستعده كتمانهُ وسأله
مساعدته فيه، فقال له: لقد جتتنى بإحدى العظام، ويمكن أن فى هذا معاداتى
الحى جميعاً إن فطن به، فقال: أتحرر فى أمره من أن يظهر، فواعده فى ذلك
ومضى إلى جميل فأخبره بالقصد، فأتيا الرجل ليلاً فأقاما عنده وأرسل إلى بثينة
بوليدة له بخاتم جميل، فدفعته إليها، فلما رآته عرفت الأمر فتبعته وجاءته، فتحدثا
ليلتها وأقام بموضعه ثلاثة أيام، ثم ودعها وقال لها: عن غير قلى والله ولا ملل يا
بثينة كان وداعى لك ولكنى قد تدمت من هذا الرجل الكريم وتعريضه نفسه
لقوله، وقد أقمت عنده ثلاثة أيام، ثم انصرف وقد تذكر عدل روق له فأنشد:

لقد لامنى فيها أبٌ ذو قرابة حبيب إليه فى ملامته رشدى
وقال أفق حتى متى أنت هائم بيثنة فيها قد تعيد وقد تبدى
فقلت له فيها قضى الله ما ترى على وهل فيما قضى الله من بدُّ
فإن يك رشداً حبها أو غواية فقد جتته ما كان منى عن عمد
قد لج ميثاقٌ من الله بيننا وليس لمن لم يوف الله من عهد
فلا وأبيها الخير ما خنت عهدهما ولا لى علم بالذى فعلت بعدى
وما زادها الواشون إلا كرامة على وما زالت مودتها عندى

أفى الناس أمثالى أحبّ فحالهم كحالى أم أحببت من بينهم وحدى
وهل هكذا يلقي المحبون مثل ما لقيت بها أم لم يجد أحد وجدى

عزة بثينة وجميل

وقع بين بثينة وجميل هجر فى غيرة كان غار عليها من فتى كان يتحدث إليها من بنى عمها، فكان جميل يتحدث إلى غيرها فيشق ذلك على بثينة وعلى جميل، وجعل كل واحد منهما يكره أن يبدى لصاحبه شأنه، فدخل جميل يوماً وقد غلب عليه الأمر إلى البيت الذى كان يجتمع فيه مع بثينة، فلما رآته جاءت إلى البيت ولم تبرر له، فجزع لذلك وجعل كل واحد منهما يطالع صاحبه وقد بلغ الأمر من جميل كل مبلغ فأنشأ يقول:

لقد خفت أن يغتالى الموت عنوة وفى النفس حاجات إليك كما هيا
وانى لتثينى الحفيظة كلما لقيتك يوماً أن أبشك ما بيا
ألم تعلمى يا عذبة الريق أنى أظل إذا لم أسق ريقك صادقاً
فرقت له بثينة وقالت لجارية لها كانت معها: ما أحسن الصدق بأهله ثم اصطالحا، فقالت له: أنشدنى قولك:

تظل وراء الستر ترنو بلحظها إذا مرّ من أترابها من يروقها
فأنشدها إياه فبكت وقالت: كلا يا جميل ومن تراه يروقى غيرك

عفاف جميل وبثينة

وشت جارية بجميل وبثينة إلى أبيها، وأنه الليلة عندها، فأتى وأخوها مشتملين معتمدين سيفهما لقتله فسمعه يقول لها بعد شكوى شغفه بها: هل لك فى طفء ما بى بما يفعل المتحابان، فقالت: قد كنت عندى بعيداً من هذا ولو عدت إليه لن ترى وجهى أبداً، فضحك وقال: والله ما قلته إلا اختياراً ولو أجبت إليه لضربتك

بسيفى هذا إن استطعت وإلا هجرتك أما سمعت قولى:

وإنى لأرضى من بثينة بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحوول ينقضى وأآخره لا نلتقى وأوائله
فلما سمعا ما دار من الكلام بينهما قالا فلندعهما والله سوية لأن من كانت هذه
حالته لا يجوز منع الزيارة عنه أو الاجتماع بها وانصرفا.

موت جميل ونعيه إلى بثينة

دعا جميل يوماً وهو فى مصر رجلاً فقال له: هل لك فى أخذ كل ما أخلفه
على أن تفعل شيئاً أعهده إليك؟ قال سمعاً وطاعة، قال: إذا مات فخذ حلتى
هذه وأبقها جانباً وخذ ما بقى لك وارحل إلى رهط بنى الأحب من عذرة وهم
رهط بثينة فإذا صرت إليهم فاركب فارقتى والبس حلتى واشققها تم اعتل قمة عالية
وأنشد هذه الأبيات دون خشية لائم وأنشد:

صدع النعى وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول
ولقد أجزّ الذيل فى وادى القرى نشوان بين مزارع ونخيل
قومى بثينة فاندبى بعويل وابكى خليلك دون كل خليل

وبعد ذلك قضى نجه فواراه التراب وأتى رهط بثينة وفعل ما أمره به جميل فما
أتم الأبيات حتى برزت إليه امرأة يتبعها نسوة قد فاقت عليهن طولاً وبرزت أمامهن
كالبدر فى دجنة وهى تختال فى بردها فقالت: يا هذا، والله لئن كنت صادقاً لقد
قتلتنى ولئن كنت كاذباً لقد فضحتنى قال: والله ما أنا إلا صادق وأخرج حلتى،
فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحى يبيكين معها
ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشياً عليها ساعة ثم قامت وهى تقول:

وإن سلوى عن جميل لساعة من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواءً علينا يا جميل بن معمر إذا مت بأساء الحياة ولينها
وما زالت تكرر هذين البيتين حتى ماتت بعد ثلاثة أيام من سماعها بموت جميل.

ما حدثته بثينة عن جميل

حدثت بثينة - وكانت صدوقة اللسان جميلة الوجه حسنة البيان عفيفة قالت: والله ما أرادنى جميل رحمة الله عليه بريبة قط ولا حدثت أنا نفسى بذلك منه، وإن الحى انتخبوا موضعاً، وإنى لفى هودج لى أسير إذا أنا بهاتف ينشد أبياتاً، فلم أتمالك أن رميت بنفسى وأهل الحى ينظرون، فبقيت أطلب المنشد فلم أقف عليه، فناديت: أيها الهاتف بشعر جميل ما وراءك منه، وإنى أحسبه قد قضى نجه ومضى لسبيله، فلم يجبنى مجيب، فناديت ثلاثاً وفى كل ذلك لا يرد على أحد شيئاً، فقالت صويحباتى: أصابك يا بثينة طائف من الشيطان، فقلت: كلا لقد سمعت قائلاً يقول: قلن نحن معك ولم نسمع، فرجعت فركبت مطيتى وأنا حيرى والهة العقل كاسفة البال، ثم سرنا، فلما كان فى الليل إذا ذلك الهاتف يهتف بذلك الشعر بعينه، فرميت بنفسى وسعيت إلى الصوت، فلما قربت منه انقطع، فقلت: أيها الهاتف ارحم حيرتى وسكن عبرتى بخبر هذه الأبيات فإن لها شأنًا، فلم يرد على شيئاً، فرجعت إلى رحلى فركبت وسرت وأنا ذاهبة العقل وفى كل ذلك لا يخبرنى صويحباتى أنهنَّ سمعن شيئاً، فلما كانت الليلة القابلة نزلنا وأخذ الحى مضاجعهم ونامت كل عين فإذا الهاتف يهتف بى ويقول: يا بثينة أقبلى إلى أنبك عما تريدن، فأقبلت نحو الصوت فإنه شيخ كان من رجال الحى، فسألته عن اسمه وبيته فقال: دعى هذا وخذى فيما هو أهم عليك، فقلت له: وإن هذا لما يهمنى، قال: اقنعى بما قلت لك، فقلت له: أنت منشد الأبيات، قال: نعم، قلت فما خبر جميل، قال: فارقتة وقد قضى نجه وصار إلى حفرتة رحمة الله تعالى عليه فصرخت صرخة أذيت منها الحى وسقطت لوجهى فأغمى على، فكان صوتى لم يسمعه أحد وبقيت سائر ليلتى، ثم أفقت عند طلوع الفجر وأهلى يطلبوننى فلا يقفون على موضعى، ورفعت صوتى بالعويل والبكاء ورجعت إلى مكانى، فقال لى أهلى: ما خبرك وما شأنك فقصصت عليهم القصة، فقالوا رحم الله جميلاً، واجتمع نساء الحى وأنشدتهن الأبيات، فأسعدننى بالبكاء، فلم نزل كذلك مدة أيام ثلاث، لم أكتحل بعدها بإثمٍ ولا فرقت رأسى

بمخيط ولا مشط ولا دهنته إلا من صداع خفت على بصرى منه، ولا لبست
خماراً مصبوغاً ولا إزاراً، ولا أزال كذلك أبكيه إلى الممات.



قيس بن ذريح العذرى ولبنى بنت الحجاب

كان قيس بن ذريح العذرى ذاهباً لبعض حاجاته فمر بينى كعب وقد احتدم الحر فاستقى الماء من خيمة منهم، فبرزت إليه فتاة مديدة القامة بهية الطلعة عذبة الكلام سهلة المنطق فناولته إداوة ماء، فلما شرب قالت: ألا تبرد الحر عندنا، وقد تمكنت من فؤاده، فقال: نعم، فمهدت له فدخل فجاء أبوها فوجده فرحب به غاية الترحاب ونحر له جزوراً، فأقام عندهم ضياءً اليوم ثم انصرف وهو أشغف الناس بها، فجعل يكتم ذلك إلى أن غلب عليه فنطق فيها بالأشعار وشاع ذلك عنه، ومرّ بها ثانياً فنزل عندهم وشكا إليها حين تخاليا ما نزل به من حبها، فوجد عندها أضعاف ذلك، فانصرف، وقد علم كل واحد ما عند الآخر، فمضى إلى أبيه فشكا إليه ذلك، فقال له دع هذه وتزوج بإحدى بنات عمك، فغمّ منه وجاء إلى أمه، فكان منها ما كان من أبيه فتركها وجاء إلى الحسين بن علي بن أبي طالب وأخبره بالقصة، فرثى له والتزم أن يكفيه هذا الشأن فمضى معه إلى أبي لبني فسأله في ذلك فأجاب ثم قال إنه من اللائق أن يكون ذلك من أبيه شأن العرب في هذه الأحوال، فشكره ومضى إلى أبي قيس حافياً عى حرّ الرمل، فقام ذريح ومرغ وجهه على أقدامه ومشى مع الحسين إلى أبي لبني فزوج قيساً بها ولما تزوج بها أقام معها على أحسن مراتب الحب والإقبال ولكن لم تلد له ولداً، فسأ ذلك أباه فعرض عليه أن يتخذ غير زوجته وأن ذلك أحفظ لنفسه وأبقى لماله ونسله فامتنع وقال لا أسوءها قط وقام يدافع عنها عدة سنين إلى أن أقسم أبوه أن لا يدخل البيت إلا ولبنى طالق منه، فكان إذا اشتد الحر يستظل بردائه ويصلى بحر الشمس حتى يجيء الفء فيدخل إلى لبني فيتعانقان ويتباكيان وهي تقول له: لا تفعل فأهلك، ثم خشى قيس أبيه فأذعن لما أشار به فلما أرمعت الرحيل بعد العدة جاء وسأل الجارية عن أمرهم فقالت: سل لبني، فأتى إليها فمنعه أهلها وأخبروه أنها

ترجحل الليلة أو غدًا، فسقط مغشيًا عليه فلما أفاق أنشد:

وإني لمفني دمع عيني بالبكا حذار الذي قد كان أو هو كائن
وقالوا غدًا أو بعد ذاك بليلة فراق حبيب لم بين وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتي بكفيك إلا أن ما حان حائن

فلما حملت إلى المدينة يئس قيس واشتد شوقه وزاد غرامه وأفضى به الحال إلى مرض ألزمه الوساد واختلال العقل واشتغال البال، فلام الناس أباه على سوء فعله فجزع وندم وجعل يتلطف به، فلما آيس منه استشار قومه في دائه، فاتفقت آراؤهم على أن يذهب فيتصفح أحياء العرب علّه يرى من تسليه عن حب لبنى، ففعل حتى نزل بحى من فزارة فرأى جارية قد حسرت عن وجهها اللثام وهى كالبدر حسنًا، فسألها عن اسمها، فقالت: لبنى، فسقط مغشيًا عليه، فارتاعت وقالت: إن لم تكن قيسًا فمجنون، ونضحت على وجهه الماء، فلما أفاق استنسبته، فإذا هو قيس لبنى، وكان أمرهما اشتهر فى العرب، وجاء أخوها فأخبرته فركب حتى استرده وأقسم عليه أن يقيم عنده شهرًا.

فأجاب دعوته، ثم بلغ قيسًا أن لبنى عاتبة عليه وعلى ما صدر منه، فندم قيس وسار وقد اشتد به الغرام حتى وصل محل قومها، فقالت له النساء: ما شأنك وقد رحلت مع زوجها، فلم يلتفت حتى أتى محل خبائها فتمرغ به وأنشد:

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون فجسمه نحيل وعهد الوالدين قديم
ولما عادت رآها فبهت صامتًا ثم عاد، فأرسلت إليه مع امرأة لها تستخبر عنه

فأنشد:

إذا طلعت شمس النهار فبلىمى فأية تسليمى عليك طلوعها
بعشر تحيات إذا الشمس أشرقت وعشر إذا اصفرت وحن رجوعها
ولو أبلغتها جارة قولى اسلمى بكت جزعًا وارفض منها دموعها

ثم زاد وجده فمرض وزاد فى جسمه الألم، فعاده الطبيب وعرف ما به من الوجد وما يلقاه من حب لبنى فقال له منذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت،

فأنشد:

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا صغيرين فى المهد

فزاد كما... وأصبح نامياً
ولكنه باقٍ على كل حادث
وما كاد يهجر الورد حتى علم بموت لبني فهاجت منه عوامل الأسي وقصد
قبرها فبكى حتى أغمى عليه ثم عاد إلى بيته مريضاً فأنشد:

عيد قيس من حب لبني ولبني
فإذا عادني العوائد يوماً
ليت لبني تعودني ثم أفضى
ويح قيس لقد تضمن منها
ثم قضى بعد ذلك بثلاثة أيام.

جعده بن مهجع العذري وأسماء

كان لجعده بن مهجع العذري أخوالٌ حول ماله إليهم خشية التلف فأقام عندهم
ثم خرج يوماً على فرس وقد صحب شراًباً، فاشتد الحر وظهرت له دوحة فقصدتها
ونزل تحتها، فما لبث أن لاح له شخص عليه درع أصفر وعمامة سوداء يطرد أتاناً
شارداً حتى قتله، ثم قصد الدوحة ونزل بها، فحادثه فوجد في الفأظه عذوبة لا
تقدر وخلق عقله، فدعاه إلى الشراب فشرب وقام ليصلح من شأن فرسه فتزحزح
الدرع عن ثدي كحق العاج، فقال: امرأة أنت؟ فقالت: نعم، ولكن شديدة
العفاف حسنة الأخلاق والمفاكهة، فعلقها من تلك الساعة، وسألها الزيارة، فذكرت
أن لها إخوة شرسة وأباً كذلك ثم مضت، فلما طالت مدة الفراق راد حزنه
وسقامه ولارم الورد سنة كاملة، ثم شكى إلى أحد أصحابه فأشار عليه أن يخطبها
من أبيها ومضى معه حتى نزلا بالشيخ، فأحسن لهما ورحب بهما، فقال له:
قد أتيتك خاطباً، قال فوق الكفاءة وروجه بها، فلما كان الغد صادفه صديقه
وسأله عن حاله معها، فقال: أبدت لي كثيراً مما أخفته عني قديماً وسألته عن ذلك
فأنشدت:

كتمت الهوى أنى رأيتك جارعاً
فقلت فتى بعد الصديق يريد

فإن تطرحنى أو تقول فتية
فوريت عما بى وفى الكبد والحشا
يضر بها برح الهوى فتعود
من الوجد برح فاعلمن شديداً
فبارك لهما وانصرف.

أبو مالك بن النضر العذرى وابنة عمه

قال شبابة بن الوليد: إن فتى من بنى عذرة يقال له أبو مالك بن النضر كان عاشقاً لابنة عم له عشقاً شديداً، فلم يزل على ذلك مدة، ثم إنه فقد بضع عشر سنين ولم يعلم خبره، فضلت إبل لى فخرجت فى طلبها، فبينما أنا أسير فى الرمال إذا بهاتف يهتف بصوت ضعيف وهو يقول:

يا ابن الوليد ألا تحمون جاركم
عهدى إذا جار قوم نابه حدث
هذا أبو مالك المسى ببلقعة
طريح شوق بنار الحب محترق
أما النهار فيضنيه تذكره
يهذى بجارية من عذرة اختلست
وتحفظون له حق القربات
وقوه من كل أضرار الملمات
مع الضباع وآساد بغابات
تعتاده زفرات إثر لوعات
والليل مرتقب للصبح هل يأتى
فؤاده فهو منها فى بليات

فقلت: دلنى عليه رحمك الله فقال: نعم أقصد الصوت فلما قصدت غير بعيد سمعت أنيئاً من خباء فأصغيت إليه فإذا قائل يقول:

يا رسيس الهوى أذبت فؤادى
وملأت الحشا عذاباً اليماً

فدنوت منه فقلت: أبو مالك، فقال: نعم قلت ما بلغ بك ما أرى قال حب سعاد ابنة أبى الهيثم العذرى فشكوت يوماً إلى ابن عم لنا من الحى ما أجد من حبيها فاحتملنى إلى هذا الوادى منذ بضع عشر سنين ويأتينى كل يوم بخبرها ويقوتنى حفظه الله من عنده فقلت له إنى أصير إلى أهلها فأخبرهم بما رأيت قال أنت وذاك فانصرفت إلى أهل الجارية فخبرتهم بحال الفتى وما رأيت منه وحدثهم حديثه فرقوا له وعزموا على تزويجه بحضرتى فعدت إليه لأفرج عنه فلما أخبرته الخبر حدد النظر إلى ثم تأوه تأوهاً شديداً بلغ من قلبى وأنشأ يقول:

الآن إذ حشرجت نفسى وخامرها فراق دنيا وناداهما مناديهما
ثم زفر زفرة فمات فدفتته فى موضعه ثم انصرفت فأعلمتهم الخبر فأقامت
الجارية ثلاثة أيام دون أكل ولا شرب ثم ماتت على الأثر.

ذريعة بن خالد العذرى

كان ذريعة بن خالد العذرى غلاماً حسن الوجه عذب المنطق سخي الكف حسن
الشمائل فخرج يوماً للصيد فلما ورد المشرعة وجد النساء يغترفن الماء ودونهن
جارية قد انفردت تمشط شعرها على جانب الغدير وقد أسبلته على وجهها المنير من
خلاله كما ينير البدر فى غاسق الدجى، فلما أبصرها سقط مغشياً عليه، فقامت
فرشت عليه الماء فلما أفاق وأبصرها قال: وهل مقتول يداويه قاتله، قالت: كفيت
ما تشكو وحادثته فثابت نفسه إليه وقد داخلها ما داخله من الحب ثم عاد وهو
يقول: خرجنا لنصيد فاصطدنا ثم أنشد:

خرجت أصيد الوحش صادفت قانصاً من الريم صادتنى سريعاً حباته
فلما رماني بالنبال مسارعاً رقانى وهل ميتٌ يداويه قاتله
ألا فى سبيل الحب صب قد انقضى سريعاً ولم يبلغ مراداً يحاوله
ثم إنه لزم الوساد أياماً فسألت أمه عن ذلك فأطلعها الخبر فإذا هى ظريفة بنت
صفوان بن وائلة فمضت إليها وأعلمتها القصة وتضرعت إليها أن تزور بيتهم عليها
تشفى ما بابنها، فقالت إن الوشاة كثيرون ولكن خذى الشعر إليه فإن أمسكه فإنه
يشفى فلما ذهبت إليه جعل يتشفه فعادت إليه نفسه شيئاً فشيئاً فصار يأتى قريباً من
بيتها فيتسارقا النظر إلى أن فطن أهلها فألوا على قتله فسار إلى اليمن وكان كلما
اشتد شوقه قبل الشعر وجعله على وجهه فيستريح لذلك فى ذات يوم بعث ولداً
نحو بيتها فسمعها تشد وتقول:

رعى الله من هام الفؤاد بحبه ومن كدت من شوقى إليه أطيرو
لئن كثرت بالقلب أتراح لوعة فإن الوشاة الحاضرين كثير
فإن لم أرر بالجسم رهبة عاذل فللقلب أت نحوكم فيزور

فعاد الصبى وأنشد له الأبيات فأغنى عليه ساعة ثم أفاق وأنشد:
 أظن هوى الخود العزيزة قاتلى فى لىت شعرى ما بنو العم صنعُ
 أراهم وللرحمن در صنهمم تراكى دى هدراً وخاب المضيعُ
 ثم أتاه الخبر بزفاف ظريفة إلى رجل يقال له ثعلب فلما بلغه ذلك اضطرب
 ساعة ثم أغنى عليه فحركوه فإذا به ميت.

مالك بن عقيل العذرى ومعشوقته سعدى

كان مالك بن عقيل العذرى يحب سعدى حباً شديداً، وكانت ذات فصاحة
 وجمال وأدب ولطف وكمال، وكان فى الحى رجل يحبها وهى لا تحبه فغار منهما
 فوشى به إلى أهلها، فحججوها عنه فتراسلا بالمحبة، وبلغه فأرسل زوجته عن
 لسانها إلى مالك بشتيم وقطيعة، ولم يعرف أنها زوجة ذلك الرجل، ولم تدر
 الزوجة تفصيل الأمر، وكان عند مالك أنفة فخرج إلى مكة ناقضاً للعهد، فلما بلغ
 زوجة ذلك الرجل وجه الحيلة وما أخفاه زوجها أخبرت سعدى بما تم فخرجت
 على وجهها إلى مكة حتى اجتمعت به وكان مالك مع كعب بن مسعدة الغفارى
 يمشيان فى القمر فسمعها كعب تقول إلى نسوة بجانبها: إى والله هو ثم قربن من
 كعب فقالت إحداهن قل لصاحبك:

لىست لىالىك فى حج بعائدة كما عهدت ولا أيام ذى سلم

فقال كعب لمالك: قد سمعت فأجب، قال: قد انقطعت فأجب أنت، فقال ولم
 يحضره غيره:

فقلت لها يا عزّ كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

وانصرفا فما استقر بهما المقام إلا وجارية تقول: أجب المرأة التى كلمتك فلما
 جاء كعب إليها قالت: أنت المجيب، قال: نعم، قالت: فما أقصر جوابك، قال:
 لم يحضرنى غيره، فقالت: لم يخلق الله أحب إلى من الذى معك، فقال: علىَّ
 أن أحضره إليك، فقالت: هيهات فضمنه الليلة القابلة فرآه فى منزله فأخبره
 بالقصة كالمكاشف وقال: لقد ضمننت لها حضورك الليلة القابلة، فلما كان الوقت

مضيا فإذا بالمجلس قد طيب وفرش فجلس مالك وجلست سعدى أمامه فتعابها
فأنشدته أبيات عبد الله بن الدمينية:

وأنت الذى أخلفتى ما وعدتني وأشميت بى من كان فيك يلوماً
وأبرزتني للناس ثم تركتني لها عرضاً أرمى وأنت سليم
فلو كان قولاً يكلم الجسم قد بدا بجسمى من قول الوشاة كلوم
فأجابها:

غدرت ولم أغدر وخنت ولم أخن وفى بعض هذا للمحب عزاء
جزيتك ضعف الود ثم حرمتني فجزيتك ضعفت الود ثم حرمتني
فالتفتت إلى كعب وقالت: ألا تسمع، فغمزه فكف ثم أنشدت:

تجاهلت وصلّى حين لاحت عمائتي فهلا صرمت الخيل إذ أنا أبصر
ولى من قوى الجبل الذى قد قطعته نصيب ولا رأى وعقل موقر
ولكننى أذنت بالصرم بغتة ولست على مثل الذى جئت أقدر
فأجابها:

لقد كنت أنهى النفس عنك لعلها إذا وعدت بالنأي عنك تطيب
ثم قبلها وأنشد:

دمى عليك من الجفون سكوبٌ والقلب منك مروّع مكروبٌ
لا شيء فى الدنيا ألدُّ من الهوى إن لم يخن عهد الحبيب حبيب
فأجابته:

خلوتم بأنواع السرور وهاكم وأقربتمونى للصبابة والحزن
وعذبتمونى بالصدود وإننى لراضٍ بما ترضونه لى من الغين
ثم افترقا فقالت لكعب: ما قلت لك إنك لا تفى بضمانتك ولكن إذا كان
السحر فائتني، فجاء كعب فإذا بالصياح فسأل الجارية عن الخبر، فقالت: حين
خرجتما جعلت سعدى فى عنقها ما خنتت به نفسها فلحقناها فخلصناها، فجلست
ساعة تحدّثنا وتفكرت فتقول: إنه لقاسى القلب ثم شهقت فماتت فلما بلغ الشاب
خبر موتها ندم ثم لزم قبرها فجاءته فى النوم فقالت: هلا كان هذا من قبل فمات
من وقته.

عروة بن حزام وعفراء العذرية

كان لعروة بن حزام ابنة عم من أعظم مشاهير عصرها حسنًا وجمالًا وأدبًا وظرفًا وفصاحة تدعى عفراء فربما معًا وله من العمر أربع سنين فكان يالفها وتألفه ويلعبان معًا غالب الأحيان، فلما بلغا الحلم سأل عمه تزويجها فوعده ذلك وأخرجه إلى الشام فجاء ابن أخ له يدعى أثالة بن سعيد بن مالك فرأى عفراء خارجة من خدرها حاسرة عن وجهها ومعصمياها وعليها إزار خز فوقعت من قلبه بمكانة عظيمة فخطبها من عمه فزوجه بها وعادوا إلى الشام فلما بلغ عروة ذلك بهت لا يحر جوابًا وزادت به لواعج النوى فأنشد:

وإني لتعروني لذكرائك رعدة	لها بين جلدى والعظام ديببُ
فما هو إلا أن أراها فجاءة	فأبهت حتى ما أكاد أجيّب
فقلت لعراف اليمامة داوني	فإنك إن أبرأتني لطيبب
فما بي من حمى ولا مس جنة	ولكن عمى الحميرى كذوب
عشية لا عفراء منك بعيدة	فتسلو ولا عفراء منك قريب
وبى من جوى الأحزان والبعد لوعة	تكاد لها نفس الشفيق تذوب
وما عجب موت المحبين فى الهوى	ولكن بقاء العاشقين عجيب

وما بلغ الحى حتى أخذه الهذيان والقلق وأقام أيامًا لا يتناول طعامًا حتى شفت عظامه ولم يخبر. بسره أحدًا، ولما أشفى ويش من الشفاء وعلم الضجر من أهله قال لهم: احتملونى إلى اللقاء فإنى أرجو الشفاء فلما حل بها وجعل يسارق عفراء النظر فى مرورها عاودته الصحة فأقام كذلك إلى أن لقيه شخص من عذرة فسلم عليه، فلما أمسى دخل العذرى على زوج عفراء وقال له: متى أتى هذا الرغد فقد فضحككم بكثرة تشبيبه، فقال: من تعنى؟ قال: عروة، قال: أنت أحق بما وصفت والله ما علمت بقدمه وكان زوج عفراء متصفًا بالسيادة ومحاسن الأخلاق فى قومه فلما أصبح جعل يتصفح الأمكنة حتى لقي عروة فعاتبه وأقسم أن لا ينزل إلا عنده، فوعد ذلك، فذهب مطمئنًا أما عروة فإنه عزم أن لا يبيت الليل وقد علموا به فخرج فعاوده المرض فتوفى بواد القرى دون منازل قومه فلما

بلغ عفرأ موته قالت لزوجها: قد تعلم ما بينك وبينى، وبين الرجل من النسابة وما عندي من الوجد وإن ذلك على الحسن الجميل فهل تأذن لى أن أخرج إلى قبره فأندبه فقد بلغنى أنه قضى قال ذلك إليك فخرجت حتى أتت قبره فتمرغت عليه وبكت طويلاً ثم أنشدت:

الأياها الركب المجدون ويحكم
فإن كان حقاً ما تقولون فاعلموا
فلا لقي الفتيان بعدك راحة
ولا وضعت أنثى تماماً بمثله
ولما فرغت من الشعر ألفت نفسها على القبر وأنشدت تقول بطرف قد عراه
الأقول:

عدائى أن أزورك يا خليلي
أشاعوا ما علمت من الدواهي
فأما إذ ثويت اليوم لحداً
فلا طابت لى الدنيا مذاقاً
ومعاشر كلهم واشٍ حسوّد
وعابونا وما فيهم رشيد
فدور الناس كلهم اللحدود
فبعدك لا يطيب لى المديد
وما فرغت من شعرها حتى غابت عن الوجود فحرّكت فإذا هى ميتة فدفنت إلى
جانب حبيبها.

مصرع عاشق من بنى عذرة

قال أحدهم: اجتزت فى بعض أسفارى حى بنى عذرة فتزلت فى بعض بيوته فرأيت جارية قد البست من الجمال حلة الكمال فأعجبنى حسنها وكمالها فخرجت فى بعض الأيام أدور فى الحى وإذا أنا بشاب حسن الوجه عليه أثر الوجد أضعف من الهلال وانحل من الخلال وهو يوقد ناراً تحت قدرٍ ويردد أبياتاً ودموعه تجرى على خديه فسمعتة يقول:

فلا عنك لى صبر ولا فيك حيلة
ولى ألف باب قد عرفت طريقها
ولا منك لى بدٌ ولا عنك مهربٌ
ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

فلو كان لى قلبان عشت بواحدٍ وأفردت قلبًا فى هواك يعذب
فسألت عن الشاب وشأنه فقيل لى يهوى الجارية التى أنت نازل بيت أبيها وهى
محتجة عنه منذ أعوام، فرجعت إلى البيت وذكرت لها ما رأيت، فقالت: صلاح
حاله فى أن لا يرانى، فحسبت أن امتناعها فتنة فيها فما رلت أقسم حتى أظهرت
القبول مكرهة، فلما قبلت ذلك منى قلت: أنجزى الآن وعدك فدتك روحى،
فقالت: تقدمنى فإنى سائرة فى إثرك فأسرعت عند الغلام، وقلت: أبشر بحضور
من تريد فإنها مقبلة نحوك الآن، فبينما أنا أتكلم معه إذ خرجت من خباثها مقبلة
تجر أذيالها وقد أثارَت الريح غبار أقدامها حتى ستر الغبر شخصها، فقلت للشاب:
ها هى قد أقبلت، فلما نظر إلى الغبار صعق وخر على نار أمامه فما أقعدته إلا
وقد أخذت النار من صدره ووجهه فرجعت الجارية وهى تقول: من لا يطيق غبار
نعالنا كيف يطيق مطالعة جمالنا.

كناس بنى عذرة

قال الأصمعى: بينا أنا سائر فى أحياء بنى عذرة إذ سمعت صوتًا يقول:
جنبوني ديار هند وسعدى ليس مثلى يحل دار الهوان
فالتفت يمناً وشمالاً فإذا الصوت خارج من حش فأقبلت حتى وقفت عليه فإذا
بكناس يكنس الأرض، فقلت: سبحان الله أنت تكنس فى أحياء عذرة وتقول:
«ليس مثلى يحل دار الهوان» فأنى ذلك وأى هوان أكثر مما أنت فيه فرفع رأسه
إلى وقال:

لا تلمنى فإننى نشوانُ أنا فى الملك ما سقتنى الدنان
